من آيات الله تعالى في الكون
"الماء في جوف الأرض"

• محمد زكي أحمد فواز

جاءت إشارات في الذكر الحكيم بشأن الماء في جوف الأرض لتأخذ بحواس الإنسان ولبه إلى عظمة إبداع الله عز وجل في شأن هذا الماء، وذلك عندما يتجول الإنسان بفكره وحواسه مع الماء في جوف الأرض وهي تضمه إلى أحشائها بين ذرات ترابها ثم يعاود الخروج مرة أخرى، وأذكر إشارتين في هذا الشأن من القرآن الكريم:

الأولى: قول الله تبارك وتعالى: «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً إن في ذلك لذكرى لأولى الألباب»(1).

الإشارة الثانية: قول الله تبارك وتعالى: «والأرض بعد ذلك دحاها، أخرج منها ماءها ومرعاها»(2).

والإشارتان تتضمنان حقائق جمة أشير إلى بعضها:

الحقيقة الأولى: أن الماء الذي تحت طبقات الأرض باختلاف أنواعه وأماكنه ومقداره هو ماء نازل من السماء مثله في ذلك مثل الماء الموجود على سطح الأرض، سواء المحيطات أم البحار أم الأنهار أم البحيرات أم غير ذلك.

---

(1) سورة الزمر الآية 21
(2) سورة النازعات الآيتان 30، 31

وسواء أكان هذا الإنزال فى بداية الخليقة أم بعدها إلى ماشاء الله تعالى ، ونلحظ ذلك فى آيات من الذكر الحكيم كثيرة وهى تذكر إنزال الله عزوجل الماء من السماء بصفة عامة منها قوله تبارك وتعالى « وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى »(١)

وقوله تعالى « ألم تر أن الله نزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة »(٢) وقوله تعالى « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء »(٣) .

وقوله تعالى « وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض »(٤) إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التى تتجاوز الثانى والعشرين وكلها تذكر نزول الماء من السماء .

وذهب المفسرون والعلماء المتخصصون لدراسة طبقات الأرض ذهب كل منهما إلى التأكيد على حقيقة أن الماء الذى فى جوف الأرض هو ماء أصلا من السماء .

قال الإمام ابن كثير حول معنى آية الزمر (يخبر تعالى أن أصل الماء فى الأرض من السماء ... فإذا نزل الماء من السماء كمن فى الأرض ثم يصرفه الله تعالى إلى أجزاء الأرض كما يشاء وينبعه عيونا مابين صغار وكبار حسب الحاجة إليها .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال ليس فى الأرض ماء إلا نزل من

---

(١) سورة طه الآية ٥٣
(٢) سورة الحج من الآية ٦٣
(٣) سورة الحجر آية ٢٢
(٤) سورة المؤمنون آية ١٨

السماء ولكن عروق الأرض تغيره . وكذا قال سعيد بن جبير وعامر الشعبي : أن كل ماء في الأرض فأصله من السماء .)(١)

وقال الزمخشري (أن كل ماء في الأرض فهو من السماء)(٢) وحقيقة ماء الأرض نازل من السماء رغم بيان القرآن الكريم لها منذ أكثر من أربعة عشر قرنا إلا أن العلماء المتخصصين في هذا المجال لم يكتشفوها إلا منذ زمن غير بعيد وبعد نزول القرآن الكريم بمئات من السنين ؛ وعند دراستهم لأي منطقة صحراوية في أنحاء الأرض ، فإنهم بأبحاثهم يجدون شبها كبيرا بين الماء النازل من السماء وهو يجري في الأنهار وغيرها وبين الماء الخارج من الأرض ، ولهم أبحاث كثيرة تثبت أن الماء في جوف الأرض هو في حقيقته ماء نازل من السماء والمطر هو مصدره الوحيد لخزانات المياه الأرض في الصحراء الشرقية بمصر مثلا (أسفرت الدراسات الاستكشافية عن وجود أكثر من ٢٠٠ بئراً وينبوعا للمياه العذبة الصالحة للشرب أو الاستخدام الصناعي . وتعتبر الأمطار المصدر الوحيد للمياه الجوفية في المنطقة سواء في الطبقات الرسوبية القريبة من السطح أو في التراكيب الجيولوجية العميقة)(٣) وكذلك مصدر التغذية للمياه الجوفية في منطقة كاقليم الساحل الشمالي بمصر وهذه المنطقة (تمتد من الاسكندرية شرقا حتى السلوم غربا بطول ٤٨٠ كم وبعرض ٢٥ كم بمساحة تصل إلى ١٢٥٠٠ كم٢ والمصدر الرئيسي للمياه في هذه المنطقة هو الأمطار)(٤) وهكذا في كل بقاع العالم حيث يوجد ماء في جوف الأرض فمصدره الوحيد هو الماء النازل من السماء كما ذكرته الآيات القرآنيه.

---

(١) تفسير القرآن العظيم حـ ٧ ص ٨٣ طبعة الشعب

(٢) الكشاف حـ ٤ صـ ٢٢٠

(٣) د محمد فتحي عوض الله : الماء ص ٢٤١

(٤) المرجع السابق ص ٢٣٩ : ٢٤٠ (بتصرف)

وقد يكون للمياه الجوفية بعض المصادر الأخرى مثل تسرب بعض ماء البحار والأنهار وغيرهما إلى جوف الأرض لكن جميعها يرجع إلى المصدر الأول وهو الماء النازل من السماء .

الحقيقة الثانية : كما أن الله تبارك وتعالى أودع سننا وقوانين فى الماء عند تكوينه فى طبقات الجو وكذا عند نزوله ، كذلك بث من السنن والضوابط فى جوف الأرض ما يمكن الماء من السير فى رحابها ، تختلف باختلاف طبقات الأرض ونوعيتها وأماكن تجمع هذا الماء ، وأماكن خروجه ، والعوامل المساعدة على ذلك التى سخرها الخـــلاق اللطيف وقوانين نزول الماء إلى الأرض وتشربها له وسريانه بين طبقاتها المتنوعة وخروجه منها بأنواعه المختلفة ، وأماكن خروجه وكميته وكيفيته كل ذلك مقدر عندالله تبارك وتعالى ومحسوب بدقة متناهية ولا تخطىء . هـذه القوانين التى وضعها الله تعالى للماء وهو فى جوف الأرض أو للارض وهى تحتضن المـاء بين أحشائها ، وهذه القوانين وتلك لا تقل تعقيدا وإعجازاً عن ماء الأنهار والبحار على سطح الأرض إذا هى أيضا مياه جارية متحركة . . وتحركاتها تكون من المرتفعات إلى المنخفضات ، ومن حيث مصدرها إلى المصب متمشية مع ميل الطبقات الأرضية إلى حيث تظهر من جديد بأشكال قد تكون رشحا عاديا أو نزازات أو ينابيع وعيون أو آبار عاديـة أو ارتوازية ، أو ظهور على السطح من خـلال الفوالق الأرضية والكسور ، أو بخرا نباتيا وفى النهاية إلى البحر . ولقد وجد أن تحركات المياه الجوفيـة فى المناطق الجبلية تكون بمعدل أسرع منها فى المناطق المستوية ، متوقفة بالطبع وفى الحالتين على درجة مسامية الصخر الذى إياه تعبر (١))

---

(١) الماء د / محمد عوض الله ص ٢٢٩ ، ٢٣٠

وقد أجريت دراسات ميدانية لبيان معدل سرعة المياه الجوفية وكانت النتيجة (أن وجد معدل السرعة الذى تتحرك به تلك المياه ، قد يكون كبيراً جداً ولدرجة تبلغ أربعمائة وعشرين قدما فى اليوم الواحد ، وقد يكون أيضا فى أبطأ درجاته بحيث تصل أدنى السرعة إلى قدم واحد لكل عشرة من السنين . أما ما بين هاتين النهايتين من معدل سرعة المياه الجوفية فلقد وجد متوسطه من خمسة أقدام فى اليوم الواحد إلى خمسة أقدام فى السنة الواحدة)(١)

هذه إشارة فقط عن حركة الماء فى جوف الأرض . ويوجد للماء فى جوف الأرض تأثير فعال فى أمور كثيرة منها دوره فى تشكيل سطح الأرض وتذويبه للمعادن وغير ذلك كثير مما يؤكد ما ذكرناه فى بداية هذه الحقيقة وهى أن الماء فى جوف الأرض أبهى مظاهر العظمة ابداع الله تعالى منه على الأرض .

الحقيقة الثالثة : إذا كان للماء من سنن وقوانين يتكون بها وينزل ويسرى فى جوف الأرض ، كذلك له من السنن والقوانين ما يخرج بها من جوف الأرض ، ويستمر فى دورة دائمة ، ليس ما بين السماء وسطح الأرض بل الدورة قائمة كذلك ما بين طبات الأرض وظلماتها العميقة إلى طبقات الجو العليا المضيئة ، ومن السنن التى أودعها الخلاق العليم لخروج الماء من جوف الأرض وتدفقه :

١ — إختلاف درجات الحرارة .

٢ — الضغط الهيدروستاتيكى(٢) الواقع على طبقات التشبع

---

(١) المرجع السابق ٢٣١ (بتصرف)

(٢) الهيدروستاتيكا : فرع من علم الميكانيكا وأهم ما يتناول ضغط السوائل وتوازنها .

٣ — الضغط الناتج عن الغازات حبيسة طبقات الأرض الغير مسامية والمغلقة لطبقات التشبع .

٤ — الضغط الناتج عن غازات تجمعت بمرور الوقت أثر بعض التفاعلات الكيمائية التى تتم فى باطن الأرض(١) .

وذكر العلماء معدلات لتدفق الماء من جوف الأرض ، فمنه البطىء ومنه السريع القوى ، ومعلوم أن الينابيع والآبار كل منهما يختلف من ينبوع لآخر ومن بئر لآخر ، من حيث المكان والزمان، ودرجة الحرارة. ومن حيث القوة والضعف ، والكمية والكيفية ، والملوحة والعذوبة ، كل ذلك وفق إرادة الخالق العظيم جل جلاله . والماء فى جوف الأرض حين يخرج للناس على سطح الأرض يكشف لهم ويعلن عن جزء من الأسرار العميقة فى باطن الأرض ما كان لهم معرفتها إلا بخروج الماء لهم فيعلن للناس السنن والقوانين التى سرى بها فى باطن الأرض ، وطريق ذهابه وطريق إيابه . وكيف تعامل مع كل طبقة من طبقات الأرض سرى فيها ، وكل نوع من أنواع المياه الجوفية يقص بلسان حاله عن بعض إعجاز الله تبارك وتعالى فى المتاهات السحيقة المظلمة المطبقة ورحلته الطويلة ، وكيف كان قبل نزوله إلى الأرض ؟ وكيف نزل إليها ؟ وقانون تشرب الأرض له باختلاف أنواعها وأين ذهب فى مسارب الأرض وضروبها ؟ ولماذا خرج فى هذا المكان بالذات وهذا الوقت ؟ ولماذا كان قوياً أو ضعيفاً أو غير ذلك ؟ وما هى العوامل التى ساعدت على خروجه والإضافات التى إكتسبها واصطحبها معه؟ وكم عدد أنواع المعادن فى جوف الأرض ؟ وما كمية كل نوع ؟ وكل نوع من أنواع المياه الجوفية يحكى قصه لبنى الإنسان عساه يتدبر ويرى إعجاز الله تبارك وتعالى فى هذا الماء

(١) الماء د/ محمد عوض الله ص ٢٥٨

وقد (تم تحليل المياه المتدفقة من ١٧ بئر للبترول لتحديد إمكانية إستخدام هذه المياه الجوفية المصاحبة للبترول الخام كمصدر لبعض العناصر الكيميائية والأملاح الأساسية فى صناعة الأدوية والمخصبات الزراعية والزجاج كعناصر البروم واليود والبورون وأملاح البوتاسيوم والماغنسيوم والصوديوم)(١) إلى غير ذلك مما ينفع الناس فضلا من الله تعالى ونعمة. ولعل هذا يأخذ بأولى الألباب إلى ساحة الإيمان بالله تعالى والعمل وفق منهجه المنزل على سيدنا رسول الله محمد ﷺ.

الحقيقة الرابعة: هناك أشياء كثيرة وتكاد تكون عامة يفقدها الإنسان ولا يستطيع لها رداً مهما إستخدم حيله المختلفة، ويعجز تماما حيال عودتها مرة ثانية. لكن إذا عجز الناس فرب الناس وحده هو القادر على إرجاع ما قد يظنه الإنسان قد ضاع. وتتمثل هذه الحقيقة جلية فى الماء. فإذا نزل الماء من السماء وتسرب فى متاهات الأرض وامتصته إمتصاصا، وغار بين دروبها المظلمة العميقة، وأطبقت عليه بسواعدها الصلبة فهو ليس بضائع، إذ لا يضيع شىء من خلق الله فى ملك الله تعالى، فهو سبحانه بيده مقاليد السموات والأرض ومالك ما فيهما وما بينهما.

وقد أبان الله سبحانه للإنسان صورة من عودة هذا الضائع — فى ظن الإنسان — وصحيح أن الماء النازل من السماء تسرى بعض بين حبيبات الأرض المختلفة من طينية ورملية وصخرية وصلصالية وزلطية وخلاف من أنواع التربة التى يسرى وتتشربه ولا يكاد يظهر للعين المجردة فى بعض أنواع التربة، وهو يعيش بين أحضانها مدداً متفاوتة قد تعد بآلاف السنين، وهو يضيف إليها وتضيف إليه ويحدث بينهما تفاعل بل وتعاون بين

---

(١) جريدة الأهرام العدد ٣٤٨٦٩ : ٩ شعبان سنة ١٤٠٢ هـ — ١٩٨٢/٦/١م.

قوانين الأرض وقوانين الماء . إلا أنه فى النهاية يعاود الظهور على سطح الأرض فى صور شتى .وعلى مقدار مكثه فى الأرض ونوعية التربة التى كانت مسرحا له من حيث النوع والكيف وغير ذلك من السنن المتعددة التى لم يعرف الناس عنها إلا القليل تكون نوعية الماء الخارج من الأرض ، والناس فى كل مكان باختلاف عقولهم وثقافاتهم يرون خروج الماء من الأرض على هيئة آبار وعيون أو ينابيع أو غير ذلك ، ويستخدم هذا الماء فى مجالات شتى فمنه ما يحيل أجزاء الأرض من صحراء جرداء قاحلة إلى جنة فيحاء تلبس أبهى ثيابها من السندس الأخضر ، فتقر العين ، ويهدأ الخاطر ، فيسقون زروعهم وحيواناتهم ولا يشربونه للإحياء والارتواء فحسب بل لعلاج أفتك الأمراض .

وقد قسم العلماء الماء الجوفى إلى عدة أنواع ولكل فائدته منها على سبيل المثال :

١ — المياه القلوية : وهذه تعطى فى حالات زيادة حموضة المعدة وأمثلتها مياه فشى وسلتز وغيرها ، وكلها تقلل من الحموضة وتدر البول وتفيد الكبد .

٢ — المياه الملينة : وهى تشرب لتقوى حركة الأمعاء الخاملة وتساعدها على طرد محتوياتها من بقايا الأغذية وتفيد فى حالة الإمساك والإضطرابات الكبدية .

٣ — المياه الممسكة . . وتستخدم فى حالات الإسهال والمغص ..)(١) إلى غير ذلك كثير .

وكما أن العيون النابعة من الأرض تختلف فى أماكن وجودها وفائدتها تختلف فى درجة حرارتها .

---

(١) د. عبد العزيز شرف : الماء غذاء ودواء ص ٣١ ، ٣٢

وفى بريطانيا توجد عين باكتون (٨٢ درجة فهرنهيت . . وفى فرنسا توجد عين فى اكى لا بان (٨٦ : ١٢٠ درجة . . وفى المانيا توجد عين فى وايلد باد (٩١ : ١٠٤ درجة) .

وفى إيطاليا توجد عين فى لوكا (١٠٠ : ١٢٩ درجة . . وفى سويسرا عين فى راجاتز ٩٦ درجة وفى جمهورية مصر العربية حمامات حلوان الساخنة حوالى ٩٠ درجة)(١) وهكذا .

وقد تستخدم هذه المياه من الخارج فى الأمراض الجلدية وروماتزم المفاصل وعرق النساء واللمباجو واضطربات الحوض فى النساء وفى الاضطرابات العصبية إلى غير ذلك من الامراض سواء منها الداخليه أم الخارجية .

وهنا يجب أن ننبه أن أفضل ماء خارج من الأرض على وجه الإطلاق هو ماء زمزم فى الأراضى المقدسة والتدليل على ذلك يكفى أن نشير إلى بعض أحاديث رسول الله ﷺ التى وردت فيه .

فى حديث طويل عن أم اسماعيل عندما نفد منها الطعام والشراب وإسماعيل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام صغيرا(.. . فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه تريد نفسها ثم تسمعت ، فسمعت أيضا، فقالت قد أسمعت إن كان عندك غواث . فإذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف .

قال ابن عباس : قال رسول الله ﷺ يرحم الله أم اسماعيل لو تركت

---

(١) المرجع السابق ص ٣٣

زمزم أو قال لولم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا . . »(١). تلك كانت بداية ماء زمزم .

وعن أنس ابن مالك قال كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال خرج عن سقف بيتى وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدرى ثم غسله بماء زمزم . . . . »(٢) .

وعن أبى جمرة الضبعى قال كنت أجالس ابن عباس بمكة فأخذتنى الحمى فقال أبردها عنك بماء زمزم فإن رسول الله ﷺ قال الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء أو قال بماء زمزم شك همام »(٣) .

وقال رسول الله ﷺ « ماء زمزم لما شرب له »(٤) . وهكذا ندرك قيمة ماء زمزم ، فمن الذى اشار إلى موضعه ؟ . ومن هو أول من شرب منه؟ ومن الذى غسل منه صدره ؟ وماذا قال ﷺ فى مائه؟ نسأل الله تعالى أن يسقينا من زمزم .

هذه بعض نوعيات من الماء الخارج من الأرض وهذه إشارة فقط عنه ، وهذه المياه الخارجة من الأرض قد ظن الناس أن ماء السماء غار فى الأرض ولن يعود ، وهم لا يرون خروجه فحسب بل رأوه يخرج إليهم لإحيائهم واستشفائهم من العلل والأمراض وكذا الحياة زرعهم وأنعامهم،

---

(١) أخرجه البخارى عن ابن عباس كتاب الأنبياء ج٤ ص١٧٣ ، ١٧٤ ط الشعب

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب باب كيف فرضت الصلاة فى الإسراء ج ١ ص ٩٢

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب بدء الخلق باب صفة النار وأنها مخلوقة ج ٤ ص ١٤٦ ، ١٤٧

(٤) أخرجه ابن ماجة فى كتاب المناسك باب الشرب من زمزم ج ٢ ص ١٠١٨ عن جابر

وهنا تظهر رحمة الله تبارك وتعالى بخلقه فى هذه المياه الجوفية ، فلو نزل الماء فى باطن الأرض وعاود الظهور منها كما نزل إليها ، فما كانت هناك حكمة وحاشا لله رب العالمين أن يخلق شيئا ولا يكون له حكم بالغة . وهكذا لا يضيع شيء من ملك الله تعالى فى ملك الله تبارك وتعالى .

الحقيقة الخامسة : إن سنن نزول الماء وجريانه أنهارا أو سلوكه ينابيع فى الأرض كلها تمضى بقدرة الله عز وجل ، والناس كل الناس لا يملكون من أمرها شيئا ، فهم لا يستطيعون إيقاف سنة من هذه السنن أو حتى تعديل واحدة منها . لأن الله وحده هو مالك الملك وهو الخالق لكل شيء كذلك أيضا خروج المياه من جوف الأرض لا يملك الإنسان من أمرها قليلا ولا كثيرا . قال تبارك وتعالى « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين »(١) .

وقد حدث أن غار ماء صاحب الجنتين فما استطاع له طلبا قال تعالى « ... أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا »(٢) .

والصحراء فى العالم كثيرة يعرفها الناس وقد لا يستطيعون زراعتها وحجتهم أن الماء على ابعاد سحيقة فى جوف الأرض ولا يستطيعون استخراجه . وهذا دليل على كمال قدرة الله تبارك وتعالى ووحدانيته وحكمته . ولذا جاء فى الذكر الحكيم أن الله تعالى جعل خروج الماء من الأرض معجزة لبعض الأنبياء واستخدموها فى الدعوة إلى الله تعالى يقول الله تبارك وتعالى « وإذ إستسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فأنفجرت منه إثنتا عشرة عينا قد علم كل إناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين »(٣) .

---

(١) سورة الملك الآية ٣٠
(٢) سورة الكهف آية ٤١
(٣) سورة البقرة الآية ٦٠

وعندما تعنت المشركون لدعوة سيدنا محمد ﷺ كان من هذا التعنت أن طلبوا منه أن يفجر لهم من الأرض ينبوعا قال تعالى «وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا »(١) ولقد حذر نبي الله صالح عليه السلام قومه من الإشراك بالله والفساد فى الأرض ، وعليهم أن يذكروا نعم الله تعالى عليهم ومنها العيون قال تعالى « أتتركون فى ما ههنا آمنين . فى جنات وعيون »(٢) .

وقال هود عليه السلام لقومه « فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون »(٣) ، فنسب إمدادهم بالعيون إلى الله تبارك وتعالى .

ويمتن الله تبارك وتعالى على عباده بنعمه وينسب تفجير العيون إلى قدرته وحده وحكمته وعلمه فيقول تعالى « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون »(٤) «وهكذا كانت العيون النابعة من جوف الأرض بقدرة الله تعالى وحده وحكمته ورحمته ، والناس يقفون حيالها لا حول لهم ولا قوة وهم يرونها ويتمتعون بها وإذا الناس لم يؤمنوا بالله الواحد سلبهم الله تعالى هذه النعمة ولا يستطيعون لها طلبا .

وإذا كان الله تبارك وتعالى هو وحده القادر على إخراج الماء من الأرض وجعله ذو منافع متعددة لعباده إلا أنه هو وحده أيضا القادر على تغير صورة إخراجه من الأرض فقد يخرج الماء من الأرض لا للنماء والحياة بل للتدمير والهلاك ، وهو سبحانه المتصرف فى ملكه كيف يشاء .

(١) سورة الإسراء الآية ٩٠

(٢) سورة الشعراء الآيتان ١٤٦ ، ١٤٧

(٣) سورة الشعراء الآيات ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤

(٤) مجلة المعرفة حـ ٧ ص ١٢٥٤

والناس فى حالة تدفق العيون من جوف الأرض وهى تقذفهم بالحمم لا يملكون حولا ولا قوة ، ويرينا الله سبحانه وتعالى ـ من حين إلى حين ـ فى أماكن مختلفة براكين مدمرة تهلك الحرث والنسل : فمثلا فى (عام ١٩٠٢ ثار بركان كيلاوا فى سان بيير على البحر الكاريبى واندفع القمح الساخن من جانب الجبل كأنه قذيفة مدفع ضخم ، وانسابت سحب متأججة من الغازات على سفوح الجبل بسرعة ١٦٠ كيلو مترا فى الساعة ، وفى ثوان معدودة ، كان معظم سكان سان بيير قد لقـــوا حتفهم إما حرقا وإما إختناقا .

أما المبانى فقد سويت بالأرض أو احترقت وبلغ عدد القتلى ٤٠/٠٠٠، ولم تنج السفن الراسية فى الميناء من الكارثة ، فهى إما إحترقت أو غرقت بفعل الأمواج العنيفة التى أثارتها مياه البحر التى بلغت درجة الغليان)(١).

وهكذا فى خروج الماء فى الحالتين :

(ا) فى حالة خروجه من الأرض للحياة وللخير .

(ب) فى حالة خروجه من جوف الأرض وهو يحمل الدمار والهلاك، فهو فى الحالتين يخرج بقدرة الله تعالى وحده وحكمته ووفق مشيئته، وهذا دليل الاختيار والاختصاص والقدرة والحكمة وينفى القـــول بالطبيعة والمصادفة أو أى آلهة أخرى مما يتعبدها الحمق من الناس .

الحقيقة السادسة : أن هناك تناسقا عجيبا بين المخلوقات أبدعته القدرة الإلهية والماء فى جوف الأرض يتناسق مع ما على ظهرها .

فإذا كانت الصحراء كبيرة وحرمها الله تعالى من جريان الأنهار خلالها، فإن الله تعالى قدر لها كمية من الماء الجوفى يتناسب مع حجمها ، يسرى

(١) مجلة المعرفة جـ ٧ ص ١٢٥٤ .

تحتها ، وتخرج هذه المياه وفق إرادة الله تعالى ومشيئته وحكمته وعلمه .

ومن لطف الله تعالى ورحمته أن جعل أكثر هذه المياه قريبة من سطح الأرض وماكان بعيداً عن السطح قد يستجرها الإنسان مع تقدم علومه وأجهزته التى وهبها الله تعالى إياه ، ومن صور التناسق كذلك أن لبيئة الصحارى نباتات معينة تستطيع الحياة مع جفاف تربتها ، بأن جذورها طويلة غائرة إلى مسافات بعيدة فى الأرض حتى تستطيع استخلاص الماء اللازم لها ، وأيضا تكون أوراقها سميكة تستطيع أن تختزن أكبر قدر من الماء وتمسك به أطول مدة ممكنة ، ومن هذه النبات ماهو مفيد للغاية وخاصة من الناحية الطبية .

وعلى العموم فإن النباتات فيها مواءمة لهذه البيئة تماما ، ومثل مواءمة النبات الحيوانات أيضا التى تعيش فى البيئة الصحراوية فهى عموما تتحمل الظمأ وأشعة الشمس الحارة وكثير منها يعيش فى الجحور وتحت الصخور كالثعابين والحشرات .

وأهم حيوانات هذه الأقاليم الجمل وهو بحق سفينة الصحراء إذ أنه يستطيع أن يأكل الأشواك الصحراوية ويشرب الماء مع نسبة ملوحة ويستطيع أن يعيش دون أن يأكل أو يشرب لمدة طويلة معتمدا على ما يختزنه فى سنامه ، وهذا التناسق العجيب فى تكيف البيئة وما فيها ومن عليها من رحمة الله وعنايته بخلقه .

وإذا كان هذا تناسق فى البيئة الواحدة فهو تناسق فى الوقت نفسه تناسق وتعاون بين هذه البيئة وغيرها من البيئات الأخرى المختلفة عنها حيث يتم التعاون والتعارف بين هذه وتلك إذ لكل بيئة نبات معين وكذا حيوان خاص وأيضا نشاط بشرى مختلف ، وفى ذلك عبرة للناس لمن أراد منهم أن يعتبر .

الحقيقة السابعة : وإذا كان خلق الله تبارك وتعالى متناسقا فإن الآيات القرآنيـــة كذلك متناسقة فى ذكرها لحقائق الكون نجد ذلك كمثال فى الآيتين اللتين سبق ذكرهما فى بداية هذا المقال فآية الزمر ذكرت نزول الماء من السماء وسلوكه ينابيع فى الأرض . وآية النازعات ذكرت خروج الماء من الأرض وآية الزمر سابقة فى ترتيب السور فى المصحف وكذلك فى ترتيب النزول عن آية النازعات ، فالذكر بنزول الماء ودخوله فى الأرض أولا هذه حقيقة . وخروج الماء من الأرض بعد نزوله إليها ودخوله فيها هذه حقيقة أخرى ، فكل آية من هاتين الآيتين أشارت إلى حقيقة ، فلو نزل الماء من السماء ودخل فى تخوم الأرض ولم يخرج منها فإن النهاية ستكون ضياع الماء فى جوف الأرض ولو بعد حين من الزمان .

لكن الله تبارك وتعالى إراد للحياة أن تدوم وتستمر إلى أجل هو سبحانه وتعالى أعلم به ، فذكر فى آية النازعات — التى اتخذناها كمثال — خروج المـاء من الأرض ، وهذا من التناسق البديع والإعجاز المعجز فى الذكر الحكيم وبيان لوحدة الموضوع فيه رغم بعد المساحة والزمن بين آية الزمر وآية النازعات ، فكما أن التناسق قائم بين مخلوقات الله تعالى فى كونه فهو كذلك قائم بين آيات الله تعالى فى الذكر الحكيم وصدق الله العظيم « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غـــير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » (١) .

الحقيقة الثامنة : وهى لا تقل أهمية عن الحقائق المذكورة سابقا ، بل لعل الآيات تقصدها بالذات وتهدف إليها وتلفت الأنظار والبصائر لها ، بصائر ذوى الفكر الثاقب والعقول الحصيفة والباحثة عن الحق بالحقائق

---

(١) سورة النساء الآية ٨٢ .

المدركون لعواقب الأمور . هذه الحقيقة هي نهاية الحياة الدنيا وأنها حياة قصيرة وفانية ، وأن بعدها حياة أخرى فيها جنة ونار . فآية الزمر بينت قصر هذه الحياة يوضح ذلك قوله تعالى في الآية نفسها « ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه » (أى ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعا مختلفا ألوانه أى أشكاله وطعومه وروائحه ومنافعه «ثم يهيج» أى بعد نضارته وشبابه يكتهل «فتراه مصفرا» قد خالطه اليبس «ثم يجعله حطاما» أى ثم يعود يابساً .. «إن في ذلك لذكرى لأولى الألباب» أى الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خضرة حسناء ثم تعود عجوزا شوهاء والشاب يعود شيخا هرما كبيرا ضعيفا وبعد ذلك كله الموت فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير ..)(١) فإذا كانت آية الزمر تقصد — من بين مقاصدها السامية — إلى تنبيه الناس من غفلهم واستيقاظهم من رقادهم لبيان حقيقة الدنيا ، فإن آية النازعات تقصد — من بين مقاصدها الرفيعة — إلى بيان حقيقة القيامة والبعث وما يتبع ذلك من سعادة أو شقاء تجد — أيها القارىء الحصيف — ذلك في ذكره تعالى بعد أن وضح بعض دلائل وحدانيته وقدرته ويقول « فإذا جاءت الطامة الكبرى . يوم يتذكر الإنسان ما سعى »(٢) الآيات .

الحقيقة التاسعة : أن الله تبارك وتعالى لطيف بعباده ورحمن رحيم بهم حيث ساق لنا الحقائق السابقة في أسلوب سهل واضح، ورغم سهولته إلا أنه يتضمن حقائق — ما أشرنا إلا إلى بعضها — في غاية التعقيد، لكن الله جل جلاله يسر القرآن للذكر حتى يدركه كل الناس ولا يبقى لهم حجة على الله بعد هذا البيان . فالماء ينزل من السماء ويراه الناس ويطيرون به بهجة وسرورا ويدخل في الأرض والناس يعرفون ذلك ، ويعاود الخروج منها والناس

---

(١) الإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ٧ ص ٨٣

(٢) سورة النازعات الآيتان ٣٤ ، ٣٥ وما بعدهما

يرون ذلك أيضا فالحقائق مذكورة بأسلوب سهل، وصدق الله العظيم « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر »(١) .

الحقيقة العاشرة : إن المتدبر فى كلام الله رب العالمين يدرك بالحق واليقين أن هذا وحى جاء به رسول الله سيدنا محمد ﷺ إلى الناس كافة ، فما كان رسول الله ﷺ عالما بطبقات الأرض ولا قوانينها مع الماء فى جوفها ، ولا قوانين الماء فى نزوله وخروجه منها — وكان ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب — لكن هذا كلام رب العالمين ودليل صدق نبوة ورسالة سيد المرسلين محمد بن عبد الله الأمى الأمين ، ومن يدرك هذا يؤمن بالله ربا وبالإسلام دينا وبسيدنا محمد ﷺ نبيا ورسولا ويسير فى مشوار حياته وفق منهج الله وشريعته وسنة رسوله ﷺ .

محمد رمزى أحمد فواز
المدرس المساعد بالكلية
قسم الدعوة

---

(١) سورة القمر الآية ١٧